قراءة لكتاب «تجارب فلسفية»

بقلم: أ. د. يمنى الخولي(*)

لست أدري كيف أنفذ من جدلية الموضوعية والذاتية، العام والخاص. فمن الزاوية الموضوعية العامة كم هو رائع هذا الالتقاء من أجلِ تكريمِ أستاذٍ من أنبل أساتذة هذا الجيل وأكثرهم رهافة وإرهافا وترهيفا.. أستاذ الرهف حقا.. أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء.. حيث الكلمة رسالة ووديعة وأمانة.. حيث الكلمة ترتيلا..

فليس الترتيلُ هو فقط التلاوة بصوت رخيم كما يفيد المعنى الإشاري المباشر للكلمة. فمن قبله هناك الأصل الإيتمولوجي أي الاشتقاقي الذي يحمل دلالة للمعنى الأعمق. وفي هذا غالبا ما يعود أصل جذر الكلمة في اللغة العربية إلى مسمى حسي ملموس. مثلما يعود أصل الجذر «علم» مثلًا إلى العُلام أي «الحناء» الصابغة وما تتركه من علامة هي أثر باللون، ومنه «علمت» الشيء أي عرفت علامته وما يميزه، ثم بقية المعاني المشتقة من الجذر «علم». ومثل هذا نجد أصل الفعل «رتل» يعود إلى دويبة، دابة صغيرة عرفها العرب باسم «رتيلاء» تبنى بيتها فوق جذور الأشجار على مدى سنوات، ليكون الترتيل بناء متأنيا دؤوبا لموطن، يناقض الإلقاء السريع المتعجل، وهكذا يكون القرآن الكريم ترتيلا وليس إلقاءً، ونتفق معا على أن «الكلمة» كيان حظي في رحاب عبد الغفار مكاوي «بالترتيل» الشجي الرخيم، فيكون هذا الملتقى انعكاسا لما هو موضوعي عام.

ولكن أيضا على المستوى الذاتي الخاص، تبدو هذه اللحظة، حيث مقاربة عالم مكاوي من خلال «تجارب فلسفية»، تجليًا رائعًا لتجربة ذاتية وخبرة خاصة، عقلية ووجدانية، لازمتني طوال عمري الواعي، فلم يفارقني عالم عبد الغفار مكاوي منذ أن كنت فتاة نضرة في المدرسة

(*) أستاذ فلسفة العلم بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

الثانوية أتيه زهوا أمام نفسي وأمام الجميع بمعايشتي لكتابه «مدرسة الحكمة». ودفعني لتلمس أعمال أخرى لمكاوي عن «جوته» و«سافو»، وأنا في هذه المرحلة الباكرة المتوهجة بالصبا والطموح، وفي النهاية كانت «مدرسة الحكمة» من العوامل التي جعلت دراسة الفلسفة قرارا حاسما بالنسبة لي. وفي رحاب هذه الكلية العريقة الأثيرة تعلمت على يديه المزيد من أصول معايشة عوالم التفلسف، درّس لي مادة الامتياز ومشكلة فلسفية والفلسفة المعاصرة حيث «نداء الحقيقة» لهيدجر والميتافيزيقا حيث فلسفة العلو لشتروفه، وحصلت فيها جميعا على تقدير «ممتاز».

أجل.. شققت الطريق الفلسفي بعد ذلك في مسار فلسفة العلم ومنهجيته والإبستمولوجيا والمنطق، المختلف عن مسار «الفلسفة والأدب». ولكن على مدى ما يزيد على ثلاثين عاما وعشرين كتابا وعشرات الأبحاث مثلت مراحل متتالية ومتمايزة لم يفارقني أفق أستاذي الجليل لحظة واحدة. ويحمل «تجارب فلسفية» تمثيلا وتبيانا لهذا.

ذلك أن فاتحة الكتاب، تبدأ بانبثاقة وتنامي فلسفة الحياة لمواجهة عقدة التنوير، وفي فصله الأول «الفلسفة ومستقبل قريتنا الأرضية» تنبض الحياة في أعطاف هذا الفرع النامي حديثا المسمى بالفلسفة العلاجية، بل تنبض الحياة بإيقاعها الحميم في رؤية للتناقض فيتحول منبعا لإبداع فلاسفة عظام أمثال ديكارت وكانط وهوسرل في أهم فصول الكتاب، وحياة النقد والرفض لمثالب العصر الصناعي في مدرسة فرانكفورت. ويعلو إيقاع نبض الحياة ويزداد عذوبة ورهافة حين لقاء الوضعية المنطقية في رحاب أستاذنا الأكبر زكي نجيب محمود، بل حتى حين الوقوف على زلات وانكسارات جلجاميش وطغيانه المترسب في لاوعينا وبحثه اليائس عن الخلود. وتغدو الحياة هي الفضيلة وهي القوة عبر الطريق في «كتاب الطاو» أحب الكتب. هذا فضلا عن قوة الحياة وجها لوجه كما تتجلى في فلسفة ماكس شيلر الفينومينولوجية التي جعلت العقل متربعا على عرشه، وفي شذرة مسرحية لجوته عن بروميثيوس تجعله ثورة إلى الأبد، وفي انفتاح الصغيرة صوفي على عالم الفلسفة. وينتهي كتاب «تجارب فلسفية» بسيرة ذاتية وحوارية هي الحياة عينها وأعمق التجارب الفلسفية فيه.

هكذا عبر صفحات الكتاب تظل الحياة قوة دافعة وكامنة بين السطور جميعها تجسد رؤية مكاوي الفلسفية، وهي أن الحياة .. الحياة.. جوهر التجربة الفلسفية الحقة حيث المكابدة والمعاناة والفعل والانفعال.

فهل أقصد بأفق أستاذي الذي لا يفارقني أني أرى فلسفة العلم تفوق الفلسفات جميعا في تعبيرها عن الحياة، من حيث أنها فلسفة الهَمّ المعرفي العميق للإنسان، وأن العلم أكثر حيوية ورهافة من أي جانب آخر من جوانب الحضارة الإنسانية.. قضاياه قابلة دوما للتعديل والتطوير والتكذيب، ليكون تجسيدا ماثلا لواحد من أجلّ معاني الحياة الإنسانية.. أي التقدم المستمر والصيرورة المتنامية والخبرة الإنسانية المتصاعدة دوما.. كل يوم أفضل من أمسه، وكل خطوة أنجح من سابقتها.. يلعب الخيال الخلاق والعبقرية المبدعة دور البطولة في ملحمة العلم العظمى التي هي أنجح ملحمة خاضها الإنسان.. على مستوى الفكر وإشباع رغبة العقل الإنساني في الفهم والتفسير، على مستوى الواقع وتفاصيل الحياة الإنسانية، انتهاء بالتنظيم الطبقي للمجتمع وشكل العلاقات الدولية. فكان تاريخ العلم وليس تاريخ العروش والتيجان والحروب والمؤمرات هو التاريخ الحقيقي للإنسان وصلب قصة الحضارة في تطورها الصاعد.

الخلاصة أن الدكتور مكاوي هو فيلسوف الحياة، وأيضًا العلم وفلسفته أروع تجليات الحياة والتجربة الحية المعيشة.

لكن ليس هذا هو موطن الالتقاء الدائم، بل على العكس، إني أسائل أستاذي: لماذا يضع العلم وفلسفته كمقابل ونقيض أو على الأقل كآخر للحياة وفلسفة الحياة؟ هل لأن فلسفة العلم ولدت نتاج تزاوج العقلانية والتجريبية، وهما دعامتا عصر التنوير بما حمله من صلابة وحدّية؟

إن الدرس العميق الجميل الذي نتلقاه من فاتحة كتاب «تجارب فلسفية»، هو أن رد الفعل السلبي للحركة الرومانتيكية لم يكن يكفي، وانبثقت فلسفة الحياة من دلتاي إلى برجسون وماقبلهما وما بعدهما، لمواجهة عقدة فلسفة عصر التنوير بعقلانيته المتطرفة أو بالأحرى الجامدة، حيث النظرة القاصمة للحياة وللروح الإنسانية عن طريق الواحدية المادية والحتمية الميكانيكية والوضعية الصارمة. كانت نظرة قاصمة على مستوى الفرد أو الذات المتشخصة.. وأيضا على مستوى الجماعات والشعوب وتفاعلات الحضارة الإنسانية ككل متكامل، حيث كان التنوير تجسيدا لقيم الحداثة وخلاصتها بكل إيجابياتها وجمالياتها، وفي الآن نفسه تسويغا لجريمة الاستعمارية بكل سلبياتها وويلاتها!

التنوير يتلخص في أن «طريق التقدم هو طريق العقل والعلم والحرية». وهذا حق، أريد به باطل حين تبعته القضية القائلة إن هذا الطريق قطعه الرجل الأوروبي باقتدار وامتياز، ومن

حقه ومن واجبه أن يفرضه على الشعوب الأخرى المتخلفة طوعًا أو كرهًا، ليغدو الاستعمار والهيمنة على العالمين حقا للرجل الأبيض، وواجبا عليه.

وهذا هو الأساس الأيديولوجي للحركة الاستعمارية ووريثتها الإمبريالية، ووجهه الآخر هو المركزية الغربية. وكانت فلسفة العلم الوضعية في مرحلتها السابقة هي من جانبها، بشكل أو بآخر، تأكيدا لهذا.

لكن تجاوزت فلسفة العلم مرحلة الميلاد التنويري والنشأة الوضعية والأداتية، استوعبت هذا تماما وتجاوزته، تتسع رؤاها وآفاقها يوما بعد يوم. والمهم حقا أنها ألقت مقولات الحتمية الميكانيكية والواحدية المادية وراء ظهرها. وهذا منذ أن تفجرت ثورة الكوانتم والنسبية مع مطالع القرن العشرين وتوالت انقلاباتها الثورية قدما عبر عقوده الثلاثة الأولي، فانقلبت مثاليات العقل العلمي ومنهجه مئة وثمانين درجة، وباتت المادة كيانا أكثر شفافية من كل ما تحدث عنه الروحانيون. وفي النصف الثاني من القرن العشرين توالت الثورات العاتية في فلسفة العلم ذاتها. و منذ كتاب توماس كون اللافت «بنية الثورات العلمية - ١٩٦٢» باتت فلسفة العلم تأخذ في اعتبارها أن العلم لا يهبط من السماء ولا يسبح في الفراغ، بل يفلح أرضا مهدتها الثقافة التي نشأ في إطارها والمحيط الاجتماعي الذي رعاه ونماه، ليكون العلم محملًا بالقيم والأهداف الاجتماعية، بل وتبحث عن التعدد الثقافي بما يقتضيه من تفهم للاختلافات وقبول للآخر وديمقراطية المعرفة، نشدانا لعالم أكثر توازنا وثراء. إنه مزيد من التوجه في فلسفات العلم الراهنة الآن، نحو التجربة الإنسانية الحية. التي ترعاها وتنميها كتابات عبد الغفار مكاوي جميعها.

ألا إن الفلسفة هي الكل في واحد، بؤرة مركزية تتلاقي فيها خطوط شتى. شكرا أستاذنا الجليل على هذه البؤرة المتوهجة بألق الحياة وثرائها وأشجانها في رحابكم الرحيب الهادئ. ودمتم.